الفصل الثانى

اليهود فى فلسطين

٦- الدور القبائلى – أودور البداوة :

اليهود قبيلة سامية هاجرت من العراق (اورالكدانيين) سنة ٢٠٠٠ ق.م برئاسة إبرام الذى صار نبيًا وتسمى بعدئذ إبراهيم. ساروا فى الطريق التى يسلكها اليوم المسافرون بين العراق وسوريا شمالى نهر الفرات حتى وصلوا شمالى سوريا ثم انعطفوا إلى الجنوب حتى انتهوا إلى أرض كنعان (فلسطين) وكان إبراهيم يرتاد البقاع الخصبة ليرعى ماشيته وقد ورد ذكره كثيرًا فى الكتاب المقدس وقدّم ابنَه إسحق ذبيحة – عَلَى رأى التوراة وعلماء المذهب الحنفى – على جبل موريا مكان الحرم الشريف الآن.

أما مدينة حبرون فقد أهمل اسمها القديم وسميت بالخليل نسبة إلى إبراهيم الذى دعى خليل الله لأنهُ سكن هناك واشترى مغارة المكفيلة (حرم الخليل) وفى الجنوب الغربى من المدينة قرب قرية الظاهرية واد كبير ومرعى واسع يقال له (وادى إبراهيم) يزعمون أنهُ كان يرعى مواشيه فيه ولا يزال حتى الآن وقفًا تنفق غلته على وظائف الحرم الخليلى.

ولد لإبراهيم ابنان إسماعيل من جاريتهِ هاجر وإسحق من زوجته سارة التى كانت من قومه العراقيين فولد لإسحق يعقوب الذى دعى بعدئذ إسرائيل وأصبح اليهود ينتسبون إليه ويعتقدون أنهم تحدروا من صلبهِ.

خلف يعقوب ١٢ غلامًا فاضطرتهم مجاعات فلسطين المتوالية لانتجاع مصر ملتجئين إلى حوض نيلها الخصب حيث استعبدهم هناك الفراعنة غير أن النقوش والألواح المصرية أغفلت خبر الإسرائيليين ولم تذكر عنهم شيئًا كما أن كثيرًا من

نقدة التاريخ أغفلوا ذلك أيضًا وأنكروا ذهاب بنى إسرائيل إلى مصر ولذلك يجمل بنا ألاّ نتسرع فى الحكم بل ننتظر ما سيكتشف فى مصر وسورية بالحفريات والآثار علها تهدينا إلى معرفة الحقيقة والصواب.

ظل الإسرائيليون مشرَّدين إلى أن نبغ منهم موسى فأرسله الله نبيًا إلى قومهِ فأنقذهم من غربتهم وعاد بهم إلى أرض كنعان عن طريق الجنوب الشرقى.

كان موسى نبيًا ورجلاً عالمًا بل مشرعَ اليهود الأكبر ومصلح عقائدهم وإليهِ تنسب الوصايا العشر التى هى مصدر الأخلاق ونواة الأديان وإنا نثبتها هنا وإن كانت حفريات العراق الأخيرة تدل على أن الشريعة اليهودية وأكثر النواميس مقتبسة من الشرائع الحمورابية لكونها أقدم من موسى وهاهى ذى الوصايا المذكورة:

١ – لا يكن آلهة أخرى أمامى.

٢ – لا تصنع تمثالاً منحوتا ولا صورة ما.. الخ.

٣ - لا تنطق باسم الرب إلهك باطلاً.

٤ – اذكر يوم السبت أى اعمل ستة أيام واسترح اليوم السابع.

٥ – اكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك عَلَى الأرض.

٦ – لا تقتل.

٧ – لا تزن.

٨ – لا تسرق.

٩ – لا تشهد عَلَى قريبك شهادة زور.

١٠ – لا تشته بيت قريبك ولا شيئًا مما له.

ويظهر من الوصية الأولى أن اليهود أسبق شعوب فلسطين إلى التوحيد وأن موسى أول من قال: (لا إله إلا الله) بخلاف غيرهم من الشعوب العربية والبابلية والمصرية الذين اتخذوا من دون الله آلهة كثيرة ونعتها كل فريق بما يناسب إقليمه وبيئته.

وإذا سلمنا بنص التوراة وأقوال المؤرخ الشهير يوسيفوس نجد أن قائد بنى إسرائيل الذى فتح فلسطين كان يوشع بن نون وهو الذى عبر بجيشهِ واحتل مدينة أريحا من الكنعانيين. ولكن لا يذهل القارىء ولا يتوهم. أن جيش اليهود كان منظمًا مدرّبًا كالفيالق العصرية بل كان أشبه بقبائل ألح عليها القحط وخافت عدوًا ففزعت إلى الرحيل وأمت إقليما آخر تتلمس فيه الحياة لتنقذ نفسها من براثن الجوع والهلاك. ولذلك كانت كل قبيلة من اليهود وقتئذ خاضعة إلى أميرها منقادة إلى زعيمها على أنهم كانوا كثيرًا من الأحيان يتمردون على مرشديهم وقوادهم ويتذمرون منهم لما يرونه من وعودهم الخلابة وهذا مما يدل على أن الطبائع البدوية لا تخضع لأحد إلا مكرهة مرغمة.

نعم احتل اليهود فلسطين بحد السيف وبقسوة شديدة ولكن ذلك الاحتلال لم يكن منظمًا ولم يستطيعوا أن يبيدوا جميع أعدائهم إذ إن الفلسطينيين ما انفكوا عن مقاومة اليهود حتى أواخر أيامهم وقد أزعجتهم قبائل المديانيين (شعب عربى ورد ذكرهم فى القرآن حيث يقول: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ [1] وضيقت عليهم مذاهبهم. فيروى عن شيخ يهودى اسمه جدعون أنهُ كان يدرس قمحه فى المعصرة ليخفيهُ عن أعين المديانيين ولا يأمن من أن يبقيهُ فى البيدر. وقد نحت بنو إسرائيل الكهوف والمغاور وبنوا الحصون اتقاء من شرهم وتخلصًا من غاراتهم ومع هذا فلم يظفروا بأمنيتهم إذ إن المديانيين والعمالقة وأهل المشرق كانوا كلما حان الحصاد ينهبون زرعهم ويأكلون ثمارهم.

وقد شدد زعيم الإسرائيليين جدعون فى تحريم المديانيين وفقًا للشريعة اليهودية فلم ينجح وظل اليهود محتكين بهم وتزوجوا بناتهم وتركوا- يهوَه - إلاههم وعبدوا آلهة البلاد وأصنامها فضعفت بذلك الرابطة اليهودية وانحلت العصبة القومية وظلوا قبائل متفرقة فعجزوا عن إبادة الجيران والسكان مع محاولتهم ذلك حتى إنهم جبنوا عن ردِّ هجمات القبائل البدوية التى يمكننا أن نشبهها للقراء بالغارات التى تحدث شرقى الأردن ولا باعث لها إلا أخذ الثأر أو حب الغزو والتغلب.

---

(١) سورة هود الآية ٨٤

٧- عصر القضاة:

كان بنو إسرائيل كلما انتابتهم الصدمات ينبت فيهم رجال عظام (القضاة) فكأن الشدائد كانت محكًا لهم تميز منهم الخبيث من الطيب وتظهر من بينهم الرجل العظيم فينتخب قاضيًا لسبط ثم يجتمع عليه بعض شيوخ الأسباط فيولونهُ أمرهم وتبقى الإدارة الداخلية لهم. وحكم القاضى ينفذ فى الجميع ولم يك هذا المنصب وراثيًا بل كان منحة تتبارى فى إحرازها الأبطال وربما تعددت القضاة فى آن واحد فيجتمعون ويحاربون أعداءهم. ودامت مدة حكمهم من سنة ١٥٩٥ق.م – سنة ١٤٢٠ ق.م. وتتميمًا للفائدة نذكر هنا بعض مشاهيرهم:

(أ) جدعون: وهو من قرية عفرة وربما كانت طيبة بنى سالم وتبعد عن رام الله ١٢ كيلومترًا لجهة الشرق الشمالى وقد حارب المديانيين وأراح قومه من شرهم (سفر القضاة ص ٦: ٧،٨) وحاول أن يجمع كلمة اليهود تحت لواء سلطته إلا أن عراقتهم فى البداوة وفقد شعور الاتحاد والتضامن من نفوسهم جعل ذلك عليهِ مستحيلاً.

(ب) شمشون : وهو من قرية صرعا الحد الفاصل بين السهل والجبل وهى من بلاد الخليل (العرقوب) واقعة بين القدس والرملة ويمر بها الخط الحديدى. وكان شمشون جبارًا ذا بأس وقوة له مواقف مشهورة فى محاربته الفلسطينيين الذين كانوا أخصامًا ألداء لقومه اليهود (سفر القضاة ص ١٣) وينسبون سبب قوته إلى استرسال شعره فإذا طال قوى وإن قصر ضعف ويقال: إنهُ نزل يومًا إلى اشقلون (عسقلان) وقتل ثلاثين رجلاً فلسطينيًا وأخيرًا أسره الفلسطينيون ومات فى غزة كما ذكرنا.

(جـ) صموئيل : ولد فى قرية الرامة (الرم) التى تبعد ٩ كيلومترات عن القدس لجهة الشمال الغربى وكان كاهنًا تولى القضاء سنة ١١٤١ ق.م. على كل أسباط بنى إسرائيل وبقى قاضيًا زمنًا طويلاً واشتهر بعدله وأصالة رأيه وإصابة

أحكامه وإخلاصه وأمانته وغيرته على مصلحة أمته وهو آخر القضاة وأول من اجتمعت عليهِ كلمتهم ثم أوحى إليهِ بالنبوة. وبعد أن مضى عليهم ٤٠٠ - ٥٠٠ سنة أدركوا أضرار التفرقة وعرفوا منافع الوحدة والتضامن فاقتبسوا من جيرانهم وقلدوهم فى إدارتهم ومالوا إلى الحضارة ونسوا البداوة فاتحدت أميالهم واتفقوا على أن يقيموا منهم ملكا فطلبوا إلى النبى صموئيل أن يختاره لهم فمسح (توّج) شاول وكان يؤنبهُ إذا حاد عن سنة الله وشريعته لأن رئيس السلطة الروحية مسيطر على رئيس الحكومة الزمنية.

(د) دَبورَه: كثيرًا ما قامت النساء بأعمال خطيرة فظلمهن المؤرخون وغضوا من شهرتهن ولكنا نذكر بعض من اشتهر منهن فنقول: كانت دبورة فتاة من سبط افرايم ومن سكان قرية عطارة عند بناء المعلوف (بين القدس ورام الله) فكانت تجلس تحت نخلة وتقضى لشعبها ثم صارت نبية وقادت الجيوش لما جبن باراق اليهودى عن محاربة سيسرا الكنعانى فجندت عشرة آلاف مقاتل ونهدت بهم إلى جبل طابور شرقى مرج ابن عامر وحاربت الكنعانيين وكسرت جيشهم وبددت شملهم ولقد حجبت شهرتها اسم زوجها لفيدوت حتى أصبح يعرف بها وينسب إليها. إن عمل دبوره هذا لا يقل عن عمل بُوديسيا (Boadicia) البريطانية التى حضت قومها ضد الاحتلال الرومانى بل يشبه عمل جان دارك الفرنسية التى أخرجت الإنكليز من فرنسا ويمائل مجازفة زنوبيا العربية ملكة تدمر التى قاومت سلطة الرومان واستماتت فى حماية بلادها والذود عن ملكها ونظير هؤلاء كثير فى النهضة الإسلامية (فعائشة أم المؤمنين قادت جيشًا عرمرمًا وحاربت به عليًا فى العراق (وقعة الجمل))[1]

(١) الصحيح أن عائشة رضى الله عنها اشتركت فقط فى الجيش ضد علىّ كرم الله وجهه ولم تقم بقيادة الجيش وإنما كانت قيادة الجيش لطلحة والزبير.

والفارعة[1] أخت الوليد الشارى[2] وغزالة[3] زوجة شبيب الخارجى[4] وأخت ضرار[5].

٨ - اليهود كأمة:

لما دخل بنو إسرائيل البلاد كانوا فرقًا وأحزابًا لا رابطة تجمعهم ولا عصبية توحدهم بل كانوا مقسمين إلى اثنى عشر سبطًا (قبيلة) كل سبط يستمد قوته من

---

(١) هى القارعة (أو فاطمة، وقيل ليلى) بنت طريف بن الصلت، التغلبية الشيبانية شاعرة من الفوارس. كانت تركب الخيل وتقاتل عليها الدرع والمغفر وهى «أخت الوليد بن طريف» الخارجى. اشتهرت بقصيدة لها فى رثائه، تقول فيها:

أيا شجر الخابور مالك مورقًا كانك لم تجزع على ابن طريف

قال ابن خلكان. كانت تسلك سبيل الخنساء فى مراثيها لأخيها صخر

(٢) هو الوليد بن طريف بن الصلت التغلبى الشيبانى ثائر من الأبطال، كان رأس الشراة فى زمنه. خرج بالجزيرة الفراتية سنة ١٧٧ هـ فى خلافة هارون الرشيد وحشد جموعًا كثيرة، وكان ينتقل بين نصيبين والخابور وتلك النواحى وأخذ أرمينية، وحصر خلاط، وسار إلى أذربيجان ثم إلى حلوان وأرض السواد، وعبر إلى غرب دجلة، وعاث فى بلاد الجزيرة، فسير إليه الرشيد جيشًا كثيفًا مقدمه يزيد بن مزيد الشيبانى، فأقام قريبًا منه يناجزه ويطاوله مدة ثم ظهر عليه يزيد، فقتله بعد حرب شديدة سنة ١٧٩ هـ/٧٩٥ م

(٣) هى غزالة امرأة شيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى الحرورى. من شهيرات النساء فى الشجاعة والفروسية ولدت فى الموصل وخرجت مع زوجها على عبد الملك بن مروان سنة ٧٦ هـ، أيام ولاية الحجاج فى العراق، فكانت تقاتل فى الحروب قتال الأبطال. قال أيمن بن خزيم:

أقامت غزالة سوق الضراب لأهل العراقين شهرًا قميصا

أى شهرًا كاملاً وأشهر أخبارها فرار الحجاج منها فى إحدى الوقائع أو تحصنه منها حين أرادت دخول الكوفة وقد عيره بذلك الشعراء. قال عمران بن حطان، تخاطبه:

أسد على وفى الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة فى الوغى بل كان قلبك فى جناحى طائر

قتلها خالد بن عتاب الرياحى فى معركة أبواب الكوفة قبيل غرق زوجها شيب سنة ٧٧ هـ/ ٦٩٦م

(٤) هو شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس الشيبانى أبوالضحاك من أبطال العالم وأحد كبار الثائرين على بنى أمية كان داهية طماحا إلى السيادة. ولد سنة ٢٦ هـ / ٦٤٧م ومات سنة ٧٧هـ / ٦٩٦م

(٥) ورد ذكره فى تاريخ الطبرى

نفسه فكان يهددهم أعداؤهم الكنعانيون ويبطش بهم الفلسطينيون ويذلهم المديانيون إلى أن علموا وتحققوا أن لا خلاص لهم إلا إذا اتحدوا واشتركوا جميعا فى الدفاع عن كيانهم وإن لم يفعلوا آل أمرهم إلى الفناء والدمار.

هذه حالة طبيعية فى الأمم متى رأت كيانها الاجتماعى مهدَّدًا تتحد كلمتها لدفع الضرر العام الذى يشمل جميع أفرادها فإذا زال السبب العامل رجعوا إلى شيمتهم الأولى.

مرَّ على بنى إسرائيل ٥٠٠ عام والدهر يلقى عليهم عظاته ويعلمهم أن لا قيمة للشعب المتخاذل أمام الجمع المتماسك والمرء مجبور على أن يتطور بحسب زمانه فيكثر فى زمن كانت فيه الغلبة للكاثر ويتعلم فى عصر سادت فيه العلماء ويجمع المال فى قرن حظى فيه الأغنياء ففقهوا هذه العظة واتفقوا لأول مرة وطلبوا إلى النبى صموئيل أن يختار لهم ملكًا فمسح عليهم شاول[1] سنة ١٠٩٥ق.م أميرًا عامًا عَلَى جميع إسرائيل وبقى لكل سبط أمير خاص يحكم شعبه خاضعًا للسلطة العليا.

(أ) شاول: كان أول ملوك الأمة اليهودية ولكنه لم يتخذ مركزًا ولم يختط عاصمة لأن حياته كانت عسكرية وحلقات حروب متصلاً بعضها ببعض فلم تمنحه الأعداء فرصة لتكوين أمته وإحداث لوازمها فكان لا يفرغ من جهة إلا انصرف إلى أخرى ولا يصدر عن غزو قوم إلا غزا آخرين. فحارب العمونيين واستأصلهم ثم قاتل العمالقة والموآبيين والادوميين وخضد شوكتهم وفلّ حدّهم. أما الفلسطينيون فكانوا خصومه الألداء الذين قاوموه وجاوزوا حدودهم الساحلية وتوغلوا فى البلاد العبرانية حتى قرية مخماس الواقعة شمال القدس الشرقى وألحوا عَلَى العبرانيين فهزموا شاول وجيشه فى مرج ابن عامر فقتل نفسه خوف أن يأسره أخصامه الناقمون عليه. وقد دلت الحفريات الأخيرة فى تل الفول أن شاول لم يحكم إلا جزءًا صغيرًا من فلسطين.

---

(١) كان شاول من أصغر أسباطهم وأحط أسرهم وإنما أجمعوا عليه لما كان فيه من الوسامة والجسامة ولأنه كان يفرع القوم طولاً واشتهر بالبسالة والاقدام.

(ب) داود: ولد فى بيت لحم وكان له عدة إخوة. رعى الغنم فى حداثتهِ وهى مهنة الأنبياء. فإبراهيم وموسى ومحمد ﷺ رعوا الغنم وأطلق هذا اللقب الجميل (الراعى الصالح) عَلَى السيد المسيح. فكأن الله يجرب الإنسان برعاية الغنم قبل إرساله نبيًا فإن رآه رؤُوفًا أمينًا أرسله إلى البشر ولا ريب أن كل راع يحتاج إلى ثقة رعيته التى تطالبه بالإخلاص لها. فإن لم تتوفر فيه هذه الشروط نزعوا منه ثقتهم فعاد بالخسران المبين.

كان داود مخلصًا لرعيتهِ فقتل دبًا وأسدًا عَلَى تلال بيت لحم ذبًا عن قطيعهِ. وقتل جليات (طالوت) الجثى زعيم الفلسطينيين دفاعًا عن قومه. وفى إبان فتوته نال ثقة شعبهِ فكان حاجب الملك (ياوره). وبعد موت شاول انتخب ملكًا عَلَى سبط يهوذا سنة ١٠٥٥ ق.م. وحاربه إيشبوشث بن شاول مع الأسباط العشرة الذين لما أخفقوا فى مبتغاهم انتقضوا عليهِ وقطعوا رأسهُ وقدموه إلى داود. وبعد سبع سنين ونصف من حكمهِ توَج ملكًا على الأسباط كافة وظلت عاصمته الخليل حتى انتزع القدس عنوة من اليبوسيين سنة ١٠٤٩ ق.م. وجعلها مقر حكمته وقضى مدة حياته فى الحرب والكفاح يناضل عن أمتهِ ويصد غارات الغزاة ويسكن القلاقل الداخلية والفتوق العائلية لأن المفسدين أغروا ابنهُ أبشالوم وأطمعوه فى الملك حتى خرج عَلَى والده وحاربهُ فلاقى جزاء عمله ومات غير مأسوف عليهِ إلا من أبيه الذى رثاه بشعره الرقيق ونغماته الموسيقية المشهورة. ويقال أن قبر داود عَلَى جبل صهيون فى المحل الذى يسمى (النبى داود) وحارة (الدواهدة) مجاورة لضريحهِ الشريف. وبعد وفاته مُسح ابنهُ سليمان ملكًا عَلَى جميع أسباط بنى إسرائيل.

عصر اليهود الذهبى

(جـ) سليمان: إن كلمة سليمان مشتقة من سَلم ومعناها باللغةِ الكنعانية (المسالم) ضد المعادى. وبالفعل فإن السلام والأمن سادا طول حياتهِ ومدة ملكه لأن أباه داود كفاه الأعداء بفوزه عليهم وذلل له الصعاب فأسلمهُ الملك سنة ١٠١٥ق.م هادئًا ساكنًا فقام بأعبائهِ وحول نظره لتوسيع حدود مملكته وبناء مدنيتها

فتجاوزت ما وراء فلسطين. ويقول كتاب اليهود إن مملكة سليمان امتدت (من الفرات حتى حدود مصر). فضخمت دولتهُ وعظم شأنهُ وعقد معاهدات سلمية مع جيرانهَ ومن حوله من الأمم.

فإذا قابلنا هذه الحالة بحالتهم فى عهد جدعون لما كان بنو إسرائيل لا يأمنون عَلَى بيادرهم وكرومهم من غارة أعدائهم عرفنا فائدة الاتحاد والتآزر.

زهت أيام سليمان وأزهرت حضارتها فكثرت الأموال المقنطرة فى خزائنه من الجزية من خصومه والضرائب التى أثقلت كاهل أمته فانغمس فى البذخ والترف فنقمت عليه رعيته هذا العمل ساخطة لتلك الشدَّة التى كانت من أكبر العوامل الأساسية فى انقسامهم إلى مملكتين.

لا ريب أن من أعظم الأسس الاقتصادية لإنماء الثروة هو الأمن الداخلى فإذا استتب أمنت الناس وتنافسوا فى إنتاجها وجدُّوا فى إحداثها ومن تتبع عصر سليمان عرف أن البلاد كانت آمنة مطمئنة ولذلك كثرت الأغنام والمواشى والحجارة الكريمة والرياش الفاخرة والعاج الثمين ولو لم يكن الإنسان أمينًا لما استكثر من ملذات الحياة وطيباتها.

أرسل الله سليمان نبيًا حكيمًا وهذه قصة تبرهن على حسن فراستهَ وفطنتهِ: سكنت امرأتان فى بيت وولدتا فى يوم واحد فاضجعت إحداهما على ابنها ليلاً وأماتتهُ فقامت مسرعة وبدلت طفلها الميت بطفل رفيقتها الحى ولما استيقظت أم الولد وجدت الطفل الذى بجانبها ميتًا ولكنهُ ليس بابنها فغضبت وخاصمت رفيقتها عند سليمان وبعد أن سمع قصة كل منهما فكر قليلاً ثم قال ائتونى بسيف وأمر بشطر الولد الحى إلى قسمين وإعطاء كل امرأة نصفًا فتحرَّك حنان أمه وقالت أعطوه لها فإنى سامحتها به فأجاب سليمان اعطوا الولد الحى لها فإنها أمه وأحق به من غيرها. ويروى أن بلقيس ملكة اليمن قطعت الفيافى والصحراء سنة ٩٩٣ ق.م. رغبة فى مشاهدة حكمة سليمان واشتياقًا لرؤية عدله.

وسنة ١٠١٤ ق.م تزوج ابنة فرعون آخر ملوك الأسرة الحادية والعشرين من الدول المصرية وأعطاها والدها مدينة جازر (أبو شوشة) بائنة العرس (دوطة).

ومن أجلّ أعماله بناء الهيكل الذى صار مهبط آمال الأمة اليهودية وهو شبيه بالكعبة عند عرب الجاهلية من حيث تكوينهِ الأمة اليهودية وتوحيدها، فكما ربطت الكعبة العرب بقريش لكونها قبلتهم كذلك شأن الهيكل عند العبرانيين. فوجود أثر مقدَّس بين ظهرانى أمة يمهد لها الاتحاد وعدم التفرقة.

ولولا المعاهدة السلمية التى عقدت بين اليهود والفينيقيين لما تم بناء الهيكل لأن الفينيقيين هم الذين نقلوا إليه الأخشاب من جبل لبنان وساعدوهم فى إتقان البناء والنقش والهندسة لأنهم وقتئذ لم يكونوا يحسنون من الصنائع النفيسة شيئًا وقد تم بناءُ الهيكل فى سبع سنوات ويرجح أن أحجاره قطعت من المحجر المسمى مغارة سليمان الآن وهى واقعة تحت المدينة إلى الشرق من باب العمود (راجع تاريخ القدس).

ومن آثار سليمان الباقية «اصطبله» الكائن تحت المسجد الأقصى وبرك سليمان الواقعة جنوب بيت لحم وبعض آثار أخرى لا قيمة لها مثل أحجار المبكى فكان هذا العصر خير أيام بنى إسرائيل بل واسطة عقد ماضيهم المؤلف من ثلاث خرزات فقط الأولى شاول والثانية داود والثالثة سليمان وبعد انتظام الخرزة الأخيرة فى القلادة انقطع السمط وتفرقت الكلمة فانقسمت المملكة وانحدروا فى هاوية الانحطاط.

٩- انقسام المملكة وخرابها

التاريخ يعيد نفسه ولو أيقظتنا مواعظهُ لما لدغنا من جحر مرتين فإنهُ ألقى علينا دروسًا عملية وأثبت لنا مرارًا «أن القوة بالاتحاد والضعف مبدأه الانقسام» ولكننا مازلنا نتغافل عن كل هذا ونؤول الحوادث كما نريد نحن لا كما تريد السنن الطبيعية. وربما يستغرب القارئ كيف انقسمت فلسطين إلى مملكتين مع أنها جميعها أصغر وأقل من أن تكون مملكة واحدة ولكن يزول عجبه إذا عرف أن سبطى يهوذا وبنيامين عاشا بعيدين عن أسباط إسرائيل العشرة فاختلفت بينهم مذاهبهم واشتجرت بينهم الضغائن وكان كلما بدرت غنيمة لاسيما عند تعيين الملوك ينضم يهوذا إلى بنيامين ويختارون ملوكًا من أنفسهم فتغضب

إسرائيل لذلك وقد نفروا من شاول لأنهُ كان من سبط بنيامين وخافوا بطش داود فاستسلموا إليه مكرهين وأذعنوا إلى سليمان لأنهُ كان إداريًا حكيمًا فضبط جميع إسرائيل واخلدوا إلى طاعتهِ وفى أواخر أيامه مقتوا حكمهُ فقسا عليهم وحاول قتل يربعام بن ناباط ففر إلى مصر معتصمًا بالملك شيشق وتربص حتى ولى الأمر رحبعام الذى كان غرًا جهولاً و فظًا قاسيًا خشنًا فعاشر الفتيان ونبذ العقلاء المدربين ونكب عن طريق الحق فسألوه تخفيف ما عليهم من الضرائب والإقلاع عن تبذير الأموال فأجابهم قائلاً: إنهُ سيعاملهم بأشد مما عاملهم بهِ أبوه واستمر على المغالظة والجفاء والشدة إلى أن أكبروا عمله وجاهروا بعدائهِ فسار شيشق من مصر ونزل عَلَى القدس فافتتحها واختلس أواتى الهيكل الذهبية وتوج دخيله يربعام ومن ذلك الوقت انقسمت البلاد إلى مملكتين صغيرتين الأولى «إسرائيل» وهى الواقعة فى الشمال من القدس والثانية يهوذا وهى الواقعة بين القدس وبئر السبع.

١٠ - مملكة إسرائيل من سنة ٩٧٥ق.م إلى سنة ٧٢٢ ق. م.

انشطرت البلاد شطرين فكان أول ملوك القسم الشمالى يربعام بن ناباط الذى كبر عليه أن تخرج القدس من مملكتهِ وهى مهبط آمال اليهود وقبلتهم التى يوجب عليهم دينهم أن يحجوا إليها ثلاث مرات فى السنة وخاف من الحجاج إن هم أبصروا تلك الآثار الفخيمة وآبهة الملك وعظمته أن تنصرف قلوبهم عنه ويضعف إيمانهم بهِ لذلك عزم عَلَى بناء مذبح فى بيت ايل لأنهُ محل مقدس ليرتاح من هذه الأحلام المزعجة، فيأمن على مركزه، ويكون قد أرضى بذلك قومه. وألهاهم.. عن زيارة القدس واشغلهم عن التعلق ببلاد عدوه وهذا العمل يشبهُ ما جرى لعبد الملك بن مروان فإنهُ بنى قبة الصخرة أثناء ثورة عبد الله بن الزبير ليستعيض بها موقتًا عن الكعبة المكرمة وهكذا رجال السياسة وأربابها إذا ضاقت بهم الأمور بعثوا عاطفة الدين وهزوها لتنفيذ مآربهم وبلوغ أمنيتهم.

إن يربعام بن ناباط أول من نقل عبادة الأصنام والتماثيل من مصر ووضعها فى الهيكل لأنهُ انتحل عبادتها أثناء إقامته بينهم فهو مؤسس عبادة الأوثان وبانى حكومة إسرائيل التى تداولها ١٩ ملكًا فى مدة ٢٥٤ سنة ولكنهم لم يكونوا من سلالة واحدة بل من أسر شتى وكثيرًا ما كان يخرج عَلَى الملك قائد أو طامع فيختلس الملك منهُ ويغتصب عرضه ويستبد بالأمة وهذا منتهى الفوضى والخلاف الذى بهِ تنقرض الأمم فإذا قابلنا نظام الحكومة الإسرائيلية بغيرها من الحكومات جاز لنا أن نقول: إنهُ قام فى المملكة الإسرائيلية تسع حكومات لأن كل ملكين كانا من أسرة واحدة فمتى كان ينقرض بيت الملك الأول وانتقل إلى أسرة أخرى فيكون معدل حكم كل ملك منهم ثلاث عشرة سنة.

وأى عمل أدل على أنهم لا يصلحون للإدارة والسياسة من كونهم لم يجمعوا عَلَى رأى قط بل قضوا حياتهم فى الانقسامات والقلاقل وفساد النظام. كانت عاصمة إسرائيل «طلوزه» ثم نقلوها إلى شكيم فكانوا يصيفون بها ويشتون فى يزرعيل «زرعين» فلما ولى الملك عمرى أسس مدينة السامرة «سبسطية» وجعلها العاصمة وهى الآن بلدة حقيرة شمالى مدينة نابلس.

لم يكتف اليهود بالانقسام فقط بل طفقوا يناوئون بعضهم بعضًا فمملكة الشمال كانت تجرد جنودها وتهاجم مملكة الجنوب وقد وصلت مرة إلى الرامة «الرام» وحصرت حصنها ولقد بلغ من حقد إسرائيل أن حالفت مملكة آرام فى دمشق عَلَى محاربة يهوذا.

ومما هو جدير بالذكر أن إسرائيل تركوا عبادة الله وصبوا إلى عبادة الأوثان المصرية وأصنام أهل البلاد لاسيما لما اقترن آخاب بالأميرة الفينيقية إيزابيل بنت الملك ايثبعل الصيدونى فإنها شجعت الناس على عبادة آلهة قومها كبعل وعشتاروث فعبدوها واستبدلوا الذى هو خير بالذى هو أدنى إلى أن تلاشت مملكتهم لما عجزت عن رد سيل المملكة الآشورية الجارف التى ابتلعتها لقمة سائغة وهدمت عاصمتها وأسرت رجالها ونقلتهم إلى نينوى فانقرضت مملكتهم سنة ٧٢١ ق. م. بعد أن حكمت قرنين ونصف.

١١ - السمرة

قدمًا كان أسلوب الاستعمار يختلف عما هو اليوم فكان الملوك إذا غضبوا من أمة حاربوها فإن ظفروا بها يسبون زعماءها وأغنياءها ومفكريها إلى بلادهم ويستبدلونهم بأبناء مملكتهم حتى لا يمضى نصف قرن إلا اندمج كل من سبى بمن حولهم فيعتنقون لغتهم ودينهم وعاداتهم ويصبحون جزءًا منهم ويكون قد ثبت وأفرغ من أرسلهم فتصبح البلاد بلادهم والأهالى شعبهم وهكذا فعل شلمناصر بمملكة إسرائيل فإنهُ نقل سكانها إلى العراق وأرسل السمرة مكانهم وهذا حذوه «اسر حدّون» فلو أنهما نجحا فى خطتهما لصارت فلسطين بقعة من العراق. كان السمرة يدعون كوثيين أو كوفيين لأنهم أتوا من الكويت كما روى ذلك الأب انسطاس الكرملى فى المشرق السنة السابعة العدد العاشر وكانت ديانتهم الوثنية ولما سكنوا مدينة السامرة انتسبوا إليها فصاروا سامريين وكان عددهم غير معلوم إلا أنهم يقدرون بعشرين ألف نفس.

هبطوا البلاد ولم يكن فيها سوى الفقراء فأسسوا أمة قوية وكتلة متينة وقد ثقل عليهم عودة بنى إسرائيل فوشوا بهم إلى ملوك الفرس وعارض رئيسهم سنبلط نحميا عندما حاول بناء سور أورشليم.

وقد حاربوا فسباسيانوس الرومانى فأباد أكثرهم. وبعد ما رجع اليهود من السبى وشرعوا فى بناء القدس وترميم الهيكل قاومهم السمرة مقاومة عنيفة. واشتدت العداوة بين اليهود والسمرة حتى إن اليهودى كان إذا أراد السفر من الناصرة إلى القدس ذهب إلى الغور ومنه إلى القدس كى يتجنب بلاد السمرة الذين أصبحوا نجسين فى نظر اليهود وتظهر هذه العداوة من حديث المسيح مع المرأة السامرية على بئر يعقوب.

وأما السمرة اليوم فلا يزيد عددهم عن مائة نفس يعيشون فى مدينة نابلس ولا يخالطون أحدًا. وهذا أكبر عامل فى انقراضهم لأنهم يقلون كل سنة العدد السابق. ويقوم السمرة كل سنة بتقدمة ذبيحة الفصح عَلَى جبل جرزيم. ويدعون أنهم هم شعب الله الخاص لا اليهود. وديانتهم وكتبهم المقدسة تشبهُ ديانة اليهود وكتبهم إلا أنها تختلف فى نقط معدودات.

١٢ – مملكة يهوذا من سنة ٩٧٥ق.م – سنة ٥٨٦ ق. م.

كانت مملكة يهوذا مؤلفة من سبطى يهوذا وبنيامين ولكنهم كانوا أبطالا أشداء فحافظوا على استقلالهم أكثر من إسرائيل بمائة وخمسين سنة وإذا تتبعنا دقائق التاريخ لنتحرى عن أسباب انقراض إسرائيل قبل يهوذا نجدها كثيرة منها:

١ – تقول التوراة إن إسرائيل ترك عبادة الله وانصرف إلى عبادة الأوثان فعجل فى هلاكهم.

٢ – من يدرس التوراة يجد أن سبط يهوذا عرف بالقوة واشتهرت مشاته لوعورة بلاده كما امتازت إسرائيل بفرسانها لسهولة أراضيها ووقتئذ كان على المشاة المعوَّل.

٣ – الموقع الطبيعى: لو قابلنا القسم الشمالى بالجنوبى نرى الثانى أحصن موقعًا وأعسر مسلكًا وأمتن للدفاع فالوصول إلى القدس من الشرق أو الغرب أو من الجنوب أو الشمال أصعب بكثير من مجابهة السامرة المفتحة الأبواب والتى يكتنفها من الغرب سهل طول كرم ومن الشمال مرج ابن عامر فكأنها كانت محطة سهلة فى طريق الحكومات المصرية والعراقية فى غدوها ورواحها عَلَى أن القدس كانت بمعزل ومأمن من كل ذلك فلا يأتيها إلا من يتقصدها.

٤ – تأثير العوامل الاجتماعية والأدبية: امتزجت حكومة السامرة بالأجانب واقتبست عاداتهم ومالت إلى الحضارة فتفرقت وحدتهم وتهدمت جامعتهم واضمحلت مملكتهم وتلاشت قوميتهم.

٥ – إدعاء الكهنة أن الحضارة كفر فسمعوا أفكار العامة وهاجروا إلى مملكة يهوذا وتبعهم خلق كثير فقويت بهم يهوذا وضعفت إسرائيل.

٦ – طمع الزعماء فى العرش وتهجمهم عَلَى اغتصابهِ حتى أصبح سلعة يتناولها القوى ويأخذها القدير فيخلع الضعيف ويحرم الجبان ولا حاجة إلى الإسهاب فى ذكر هذه المملكة لئلا يمل المطالع ومن أراد التفصيل فليراجع التوراة «سفرى الملوك الأول والثانى» فإنهما أتم وأوسع ما ورد فى هذا الباب. كان أول ملوكهم رحبعام بن سليمان وظل بيت الملك ينحدّر من هذه الأسرة حتى انقراض

المملكة فتولى منهُ عشرون ملكاً. وإنما انقادت يهوذا لهذه الأسرة لكونهم ألفوا الحكم وانتخب منها ثلاثة ملوك متتابعة قبل انقسامهم –فالاعتراف بابن ملك مشهور أسهل من الخضوع إلى ملك جديد– قضت مملكة يهوذا معظم أيامها فى الحروب والقتال لأن كل جيرانها عالنوها وناصبوها العداء فلم تك تكترث بهم بل إنها كانت تخشى حكومتى مصر وبابل المتناظرتين والطامعتين فى إخضاع سكان فلسطين الذين لم يكن لهم مناص من اتباع إحدى الدولتين لأهمية موقعهم الطبيعى ولكون الحكومة التى كانت تسيطر عليهم كانت تهدد الأخرى التى لا تقر عينها إلا باستخلاصها من المتغلبين فكان سكان فلسطين إذا انحازوا إلى مصر تغضب عليهم بابل وتغزوهم فتقهرهم وتخضعهم إليها فتحقد عليهم مصر وتسومهم سوء العذاب وهكذا ظلوا ضعفاء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم فإذا التجأوا إلى دولة سخطت عليهم الأخرى وانتقمت منهم. روى أن الملك آحاز استعان بتغلث فلصر ملك أشور عَلَى قريبه وجاره ملك السامرة انتقامًا منه لكونه اتحد مع رامين ملك دمشق لمحاربته فأعانه تغلث فلصر وخرّب دمشق ثم ضرب الجزية على مملكتى يهوذا وإسرائيل. فندم آحاز وقلب سياسته وعصى ملوك أشور واحتمى بالمصريين فغضب سنحاريب وساق جيشًا جرارًا فحاصر القدس وعسكر بقرب بركة ماملا حتى أذعنوا لحكمه وأعطوا الجزية ولكنهم لم يفتحوا له المدينة.

إن من تتبع مجرى سياسة يهوذا يجدها تشبه سياسة بعض الدول الحاضرة الضعيفة التى بينما نراها اليوم حليفة دولة فإذا هى عدوتها غدًا فكأن المصلحة والفائدة هى العامل الأكبر فى تقلب هذه الأحوال فإن مملكة يهوذا قد انحازت فى عهد صدقيا قبيل انقراضها إلى ملوك مصر والتحقت بهم فلما استعلت بابل على الحكومة المصرية وانتصرت منها سلخت عنها سورية وفلسطين وضمتها إليها وأتى نبوخذنصر إلى أورشليم ونفى الأشراف وقادة الرأى فى المملكة اليهودية إلى العراق أملا أن يكون ذلك خضوعاً تاماً لا نزاع بعده ولكنه لم يمض بضع سنين حتى انتقض اليهود وقلبوا سياستهم ومالوا إلى مصر فاستشاط نبوخذنصر غضبًا من خيانتهم وتلونهم وساق عليهم جيشًا كبيرا فحاصر القدس

١٨ شهرًا واحتل المدينة عنوة وأعلن الحكم العرفى فهرب ملكها صدقيا إلى أريحا ولكنهُ لم ينج منهم فأسروه ثم أحرقوا المدينة وهدموا الهيكل ونهبوا أثاثه وسبوا أكثر السكان إلى بابل ولم يتركوا من اليهود إلا الصعاليك وشذاذ الآفاق فأقام عليهم نبوخذ نصر جدليا حاكمًا وأسكنه فى المصفاة «قرية النبى صمويل».

فأصبحت البلاد مستعمرة بابلية تقاسى من الظلم أنواعًا فغلا الحقد فى نفوس اليهود وهب رجل يهودى اسمه إسماعيل بطائفة من الأشرار الذين كانوا مهاجرين في بلاد عمون فجاسوا خلال فلسطين وقتلوا الحاكم جدليا وهربوا إلى مصر خوفًا من هجمات بابل المستقبلة وهنا يمكننا أن نقول أن جد اليهود خرج من العراق فمر بسورية وفلسطين وبادية التيه ثم رجع بذريتهِ إلى وطنهم الأول العراق.

لقد سكن اليهود فى فلسطين من ١٤٠٠ق.م – ٥٨٦ ق.م . أى نحو ثمانية قرون ولكنهم لم يستقلوا مدة إقامتهم إلا وقتًا قصيرًا كانوا يختلسونهُ من ضعف واضطراب القوتين الكبيرتين فى دلتى دجلة والنيل ويعلنون استقلالهم ومع ذلك فلم ينجوا من تحكم مصر وبابل وكانتا تنكلان بهم وتسلبانهم استقلالهم كلما سنحت الفرصة وقد ظلوا حياتهم خاضعين لجيرانهم فيدفعون الجزية وتنفذ فيهم أوامرهم وكان يكتسحهم من يخالفونهُ ويحمل ما لديهم من خيرات عائدًا بها إلى بلاده. أما السبب الأكبر فى انقراض المملكة اليهودية فهو تفرق الكلمة واعتزالهم جيرانهم وعدم امتزاجهم بغيرهم لاسيما فى المعتقدات الدينية التى لم يحافظوا إلا عَلَى قشورها فقد عبدوا الأصنام ونسوا الوصايا العشر وتشددوا فى تعصبهم اليهودى واعتقادهم أنهم شعب الله الخاص فقط، وزد على ذلك استحكام النفرة بين الأسر التى عملت عَلَى انحلال الأمة وهلاكها وهل ترجى حياة أمة قبل إصلاح أفرادها.؟

١٣ – بعض أنبياء اليهود فى فلسطين

لقد ورث الإنسان الأخلاق الفاضلة والسجايا الحسنة منذ القدم فسارت معهُ وكان كلما عرض عليها الفساد ودب فيها الشر أهاب بها داعٍ من الله ينادى

بالإصلاح فيخوف العاصى بعذاب جهنم ويعد الصالح بالخير العميم، فكان الأنبياء فى ذلك العصر دعاة الإصلاح ووسطاء بين الله وشعبه بل متشرعو العزة الإلهية ورسلها الذين حفظوا النظام بشرائعهم الأدبية أكثر من القوانين المدنية التى زادت الجناة ولم تصلح منهم شيئًا.

لا ريب أن رجال الدين لعبوا فى العصور الأولى أدوارًا هامة لما كانت الممالك «ثيوقراطية» وكان الملك هو الكاهن والحاكم والسلطان ومازالوا يمثلون فصولاً من تلك الرواية المحزنة فى عصرنا الذى انتشرت فيه مبادئ العلوم الصحيحة وانفصل الدين عن السياسة. كان اليهود يسمون النبى رائيًا «يرى المستقبل» ويعلم الغيب فيستشيرونهُ فى نتيجة الحرب ويستوضحونهُ عن حيوان فُقد وشخص مرض كما كان يفعل الرومان واليونان مع كهنتهم فهتف أنبياء إسرائيل يبشرون بأنهم شعب الله الخاص وأنهم أفضل البشر كافة فيوبخون من ارتكب الشر ولو كان ملكًا ويحضون عَلَى عمل الخير وعبادة الله الواحد الأحد. وقد نجحت دعوتهم فرفعوا قومهم من الحياة الدنيئة إلى الحياة السامية الشريفة وها نحن ندرج أسماء بعضهم.

(١) ناثان: لم يُعد من الأنبياء العظام بيدأن له وقفة رهيبة مع الملك داود لما شغف بامرأة أوريا الحثى وطمع فيها ففرق بينها وبين زوجها وأرسله إلى الحرب ثم تزوجها فاتاه ناثان ووبخهُ عَلَى شرهه وظلمهِ فاعترف بذنبهِ وقد وردت هذه الرواية فى التوراة سفر صموئيل الثانى والاصحاح الثانى عشر وأيدها القرآن الكريم سورة «ص» الآيات ٢٣ – ٢٥.

(٢) إيليا او إلياس: ولد شرق الأردن وقضى حياته فى نشر تعاليمه داخل تخوم المملكة الشمالية وقد جاهد فى محاربة الأوثان وقاوم الملكة ايزابل الفنيقية زوجة آخاب ملك إسرائيل التى حاولت تعميم عبادة الأوثان وابتدعت لليهود ديانة جديدة فأخذ يفسد عليها عملها ويبرهن عَلَى إلحادها وسخافة آلهتها إلى أن سخطت عليه ففرَّ إلى المملكة الجنوبية واجتاز القدس واستراح برهة فى محل «مار ايلياس» الواقع بين القدس وبيت لحم ثم نزل بئر السبع. وقد

ورد فى التوراة أن الله أمره أن يذهب إلى نهر كريت «واد الفلت» وهو محل يكثر فيه النساك وزاهدو الدنيا ومن شاء التوسع فليراجع سفر الملوك الأول «ص ١٧، ١٨، ١٩».

(٣) عاموس: إن فى سرد حياة هذا الرجل مغزى وعبرة لخاملى الذكر والنفس لأنهُ ولد فى قرية تقوع من بلاد الخليل وابتدأ حياته برعاية المواشى وكان يقول «لست نبيًا ولا ابن نبى بل أنا راع وجانى جميز فأخذنى الرب من وراء الضان وقال اذهب وتنبأ لشعبى إسرائيل» فامتازت تعاليمه بصفتها اجتماعية لأن بنى إسرائيل كانوا منهمكين فى لذاتهم ورفاهيتهم ومعاقرة الخمور والخلاعة والزنى بل اقترفوا جميع الرذائل والموبقات فذهب إلى بيت ايل وحذر قومه وانذرهم بالعقاب إن لم يقلعوا عن المعاصى والشهوات ويرجعوا إلى عبادة الله الحق فيكسروا الأصنام ويحطموا التماثيل ومن أعظم صفاته أنهُ كان يجابه الملوك والأشراف ويؤنبهم ويظهر لهم خطاياهم ويجهر بالحق ومن قوله «بغضت وكرهت أعيادكم. وليجر الحق كالمياه والبر كنهر دائم».

هؤلاء بعض أنبياء اليهود الذين تنبأوا فى فلسطين ومنهم «أشعياء» الذى عاش فى القدس وشهد حصار سنحاريب لها وكان يحرض قومه ليتوكلوا عَلَى الله دون البابليين ومنهم «أرميا» الذى ولد فى قرية عناتا وهى تبعد خمسة كيلومترات إلى الشمال من القدس وكان يقف عَلَى جبل الطور ويرثى اورشليم بأقوال مشجية، قد شاهد جيوش نيوخذ نصر تهدم وتحرق القدس واسوارها وهيكلها وكان من رأيهِ أن يحالف اليهودُ البابليين ويباعدوا المصريين فلم يسمعوا منهُ حتى كان ما كان من اضمحلال الدولة اليهودية. ومن تتبع تاريخ اليهود فى جميع أدوارهم الدينية يجد أنهم لم يكونوا راسخى العقيدة فى التوحيد لأنهُ ما غاب عنهم موسى أربعين يومًا حتى عبدوا العجل إله المصريين ولما سكنوا فلسطين جنحت نفوسهم إلى عبادة أصنام الكنعانيين والفينيقيين والمصريين وصاهروهم مع أن دينهم يمنع ذلك. وكانوا يسمحون لنسائهم بعبادة الأوثان فى بيوتهم فلو كان اعتقادهم متينا لتغلبوا على غيرهم ولقنوهم ديانتهم وصبغوهم بصبغتهم كما فعل المسلمون.